تامير سوريك (*)

المطرقة والمنجل والمحرقة: جمهور مشجعي فريق "هبوعيل تل أبيب" والهوية العلمانية الإسرائيلية

تستعرض ذخيرة الهتافات التي يطلقها مشجعو فريق «هبوعيل تل أبيب» (إسرائيل) في لعبتيّ كرة القدم وكرة السلة مفارقة تثير حيرة المرء. فمن ناحية، تعكس اللافتات التي يعلقها هؤلاء المشجعون على مدرجات الملاعب، من قبيل «يا عمال العالم اتحدوا» أيديولوجيا كونية واضحة المعالم. وتشكّل «مناهضة العنصرية» جزءًا أصيلًا من الصورة الذاتية الجماعية التي يحملها مشجعو هذا الفريق. فهم لا ينفكون يعبّرون عن توجه شمولي صريح تجاه المواطنين العرب في إسرائيل. وفي إسرائيل المعاصرة، التي شهدت خلال العقد الأخير تدهورًا متفاقمًا في العلاقات العربية– اليهودية (Smooha 2010)، فإن هذا الموقف ليس بارزًا في ذاته. ومن الناحية الأخرى، تبتعد ذخيرة الهتافات التي يسوقها مشجعو فريق «هبوعيل تل أبيب» كل البعد عن «الصواب السياسي» في أي بعد آخر من أبعاده. فالأغاني التي ينشدها هؤلاء المشجعون في هتافاتهم تنطوي على مضمون يحرض على العنف ويتضمن إيحاءات جنسية وطبقية ويبث الخوف من كل ما هو ألماني. ولا يتوانى مشجعو الفريق عن الاستهزاء بالمآسي الشخصية التي يتكبدها لاعبو الفريق الخصم وإدارته والسخرية منها. وحتى في سياق المعايير القاسية التي تشملها الثقافة الإسرائيلية، يشتهر مشجعو فريق «هبوعيل تل أبيب» بسمعتهم السيئة في افتقارهم إلى الرقابة الذاتية.

ولإضفاء قدر أكبر من التعقيد على هذه المسألة، لا تتردد أعداد غفيرة من مشجعي الفريق المذكور في تحدي بعض المحرمات

(*) متخصص في علم الاجتماع السياسي ومحاضر في قسم الدراسات اليهودية في جامعة فلوريدا.

الإسرائيلية الراسخة التي تنطلي عليها صفة القداسة. ومن الأمثلة البارزة على ذلك ما دأب عليه هؤلاء المشجعون من استخدام مصطلحات المحرقة (الهولوكوست) للتعبير عن كراهيتهم لخصمهم الحضري الأزلي، وهو فريق «مكابي تل أبيب». وفي الوقت الذي لا يُعتبر فيه كيل الاتهامات بالتشبه بالنازية جديدًا على الحيز العام الإسرائيلي، فإن مشجعي فريق «هبوعيل» هم المشجعون الرياضيون الوحيدون الذين ما فتئوا يوظفون هذا القياس في حيز الرياضة. وفي هذا السياق، ينظر نوربرت إلياس (Norbert Elias) وإريك دانينغ (Eric Dunning) إلى تطور الرياضة الحديثة باعتباره عنصرًا رئيسيًّا من «إجراءات التحضر» التي تسم المجتمع البريطاني. وتتسم هذه الإجراءات بتراجع مستوى التسامح مع مشاهد العنف في الحيز العام. ونتيجة لذلك، فقد برزت الحاجة إلى خلق حيز اجتماعي يُسمح فيه بارتكاب أشكال منظمة من العنف (Elias and Dunning 1986). ويُعَدّ الخطاب الذي يعتمده هؤلاء المشجعون من بين المجالات التي تبرز فيها هذه السمة التي تلف فروع الرياضة الحديثة بجلاء، حيث يمارس المشجعون أشكالًا من الاعتداءات اللفظية التي لا يتجرأ معظمهم على التفوه بها في سياقات أخرى. ولذلك، يسمّي بِن بورات (Ben Porat) مدرجات كرة القدم بـ«منطقة السماح» (Ben Porat 2007:24). ولا تُعتبر هذه المنطقة (التي يمكن الوقوف على مثيلات لها في ألعاب رياضية أخرى أيضًا) بمثابة منطقة يباح فيها كل شيء، بل هي عبارة عن منطقة تخضع فيها الحدود القائمة بين المشروع وغير المشروع للتفاوض بصورة دائمة. والمشجعون الرياضيون «المتعصبون» هم أولئك الذين يتغزلون على الدوام بحدود الشرعية في مجتمعاتهم، حيث يتحدون أقدس الحُرمات ويدفعون بالعواطف والآراء التي لا تجد تعبيرًا عنها إلى السطح، والتي يجري تغليفها في العادة بغطاء التطلعات العامة إلى المساواة أو الصواب السياسي. وهذا هو ما يضفي قدرًا هائلًا من القيمة على خطاب هؤلاء المشجعين في نظر الدراسات السوسيولوجية، حيث يظهر أن المشجعين الذين يناصرون فرقًا رياضية مختلفة يستخدمون منطقة السماح لاستعراض جملة من الأفكار المتباينة وتحدي مختلف المحرمات المقدسة. وتميط هذه الاختلافات والتباينات اللثام عن الكثير من مواطن التوتر والتناقضات الداخلية في مجتمع من المجتمعات. ونستعرض في هذه المقالة تحليلًا للخطاب الذي يسوقه غلاة مشجعي فريق «هبوعيل تل أبيب» والتركيبة الديمغرافية للدائرة الأعم التي تضم المتعاطفين مع هذا الفريق. وتفصح هذه الدراسة التي تركز على هذين الجانبين عن أن الخطاب السائد في ملاعب كرة القدم ومدرجاتها هو في واقع الحال تعبير عن الصراعات الأساسية التي تدور رحاها بين تعريفات «ما هو الإسرائيلي». وتستند الأفكار التي تسوقها هذه المقالة إلى (١) مسح أُجري

«مكابي تل أبيب»: تمثيل للطبقة الوسطى وتمسّك باللون الأحمر.

تتسم الثقافة السياسية الإسرائيلية بالتوتر المستمر بين ثلاثة أهداف والتزامات سياسية تتناقض جزئيًا مع بعضها بعضًا، وهي: المشروع الكولونيالي الذي يرمي إلى تيسير استيطان مجموعة معينة من الناس في هذه البلاد، والمشروع الإثني-القومي الذي يسعى إلى بناء دولة يهودية، والمشروع الليبرالي الذي يستهدف إقامة نظام ديمقراطي (Shafir and Peled 2002). وفيما يتصل بالصهيونيين الاشتراكيين، فهم يضعون هدفًا آخر يزيد من تعقيد هذه الصورة - وهو الرؤية الكونية (الكوزموبوليتانية) لـ"رابطة الأخوة بين الناس" (التي لا تتقاطع إلا في جانب منها مع الخطاب الليبرالي بشأن المواطَنة).

على شبكة الإنترنت في شهر أيلول ٢٠١٢.

[١] وتضم عينة هذا المسح ٥٠٠ شخص يشكلون عينة تمثل السكان البالغين الذين يتحدثون اللغة العبرية في إسرائيل. (٢) ومطالعة المواد الواردة على موقع مشجعي فريق «هبوعيل تل أبيب» على شبكة الإنترنت، (٣) والأغاني الجماعية التي يغنيها مشجعو هذا الفريق والمنشورة على موقع «يوتيوب» (YouTube) على الإنترنت، (٤) والمحادثات التي أجريناها مع غلاة مشجعي الفريق.

«هبوعيل تل أبيب» و«بيتار القدس» وحدود المواطنة

تتسم الثقافة السياسية الإسرائيلية بالتوتر المستمر بين ثلاثة أهداف والتزامات سياسية تتناقض جزئيًا مع بعضها بعضًا، وهي: المشروع الكولونيالي الذي يرمي إلى تيسير استيطان مجموعة معينة من الناس في هذه البلاد، والمشروع الإثني–القومي الذي يسعى إلى بناء دولة يهودية، والمشروع الليبرالي الذي يستهدف إقامة نظام ديمقراطي (Shafir and Peled 2002). وفيما يتصل بالصهيونيين الاشتراكيين، فهم يضعون هدفًا آخر يزيد من تعقيد هذه الصورة – وهو الرؤية الكونية (الكوزموبوليتانية) لـ«رابطة الأخوة بين الناس» (التي لا تتقاطع إلا في جانب منها مع الخطاب الليبرالي بشأن المواطَنة). فما فتئت الصهيونية الاشتراكية، منذ الخطوات الأولى التي خطتها في مطلع القرن العشرين، في فلسطين تشهد توترًا بين التطلع نحو العدالة الكونية والأجندة القومية–الكولونيالية والتعددية التي شكلت مصدر الإلهام لها لتيسير استيطان اليهود في هذه البلاد وبناء قوة يهودية سياسية مستقلة فيها. وفي هذا المقام، يفترض زئيف شتيرنهيل (Ze'ev Sternhell) بأنه سرعان ما جرت تسوية الانقسام الداخلي القائم بين «القوميين» و«الماركسيين» من أتباع الحركة الصهيونية الاشتراكية وحسمه لصالح الفصيل الذي مثّل القوميين. وبناءً على ذلك، فقد تم إخضاع العناصر التي تكتسي صفة عالمية للأجندة القومية (Sternhell 1998).

ومنذ أواخر العقد السابع من القرن الماضي، مسّ الضعف الخطاب الجمهوري في الوقت الذي اكتسبت فيه أشكال الخطاب الليبرالي والإثني القوة والمنعة. وتتداخل المنافسة القائمة بين أشكال الخطاب المذكورة، وبصورة ملموسة، مع التعريف الذاتي للتدين، حيث يميل الإسرائيليون اليهود العلمانيون أكثر من غيرهم إلى تأييد الخطاب الليبرالي ومناصرته، بينما يميل اليهود الإسرائيليون إلى تعزيز الخطاب الإثني. وفي هذا السياق، يتيح حيز التشجيع الرياضي، باعتباره «منطقة سماح»، بالإفصاح عن أبلغ أشكال التعبير المتطرف عن هذه المنافسة وإعلانها على الملأ. ويبدو أنه يمكن الوقوف على أشد التعبيرات الدرامية في خطاب الهتافات التي يطلقها مشجعو فريق «هبوعيل تل أبيب» وخصمه اللدود فريق «بيتار القدس».

لقد جرى تنظيم الاتحادات الرياضية الصهيونية، منذ إنشائها في النصف الأول من القرن العشرين، على نحو يتوافق مع الاتجاهات السياسية السائدة في إسرائيل. ففي هذا الإطار، ارتبط فريق «هبوعيل» (وهي كلمة تعني «العامل» في اللغة العبرية) بالاتحاد العام لنقابات العمال الإسرائيلية (الهستدروت) والجناح الاشتراكي للصهيونية الذي هيمن على هذا الاتحاد حتى العام ١٩٧٧. وتحالف فريق «مكابي» مع حركة الصهيونيين العموميين، وهي عبارة عن حزب برجوازي. وفي المقابل، شكل فريق «بيتار» امتدادًا لحركة الصهيونية التصحيحية التي يقودها الشباب،والتي تأسست في العام ١٩٢٣. وارتبط هذا الفريق فيما بعد بحزب «حيروت» (وبعد ذلك إلى حزب «الليكود»). وقد أنشأ كل اتحاد من

من ناحية التركيبة الديمغرافية، يتألف معظم مشجعي "الألتراس" من الرجال في العقدين الثاني والثالث من أعمارهم. وينحدر هؤلاء من طبقات وأصول شتى، غير أنهم كلهم تقريبًا يجتمعون في علمانيتهم. وقد ترعرع بعض قادة هذه الجموع في أسر تتبنى فكرًا اشتراكيًا، كما اعتنق بعضهم هذه الأيديولوجيا في مرحلة لاحقة من حياتهم. ومع ذلك، يُعتبر التوجه الأيديولوجي الذي تعتمده هذه المجموعة اشتراكيًا، ويصطبغ بتوجه واضح يميل نحو اعتماد خطاب المواطنة الشمولي. وفي هذا السياق، فقد أخبرني أحد المشجعين المتحمسين لفريق "الألتراس"، والذي عرف عن نفسه بالحرف الاستهلالي من اسمه (ت): "معظمنا ينتمي إلى اليسار، ولكن هذا ليس شرطًا. فالشرط الذي يجب التقيد به يتمثل في تجنب العنصرية."

هذه الاتحادات الرياضية فروعًا محلية له في جميع أنحاء البلاد.

أنشئ نادي «هبوعيل تل أبيب» لكرة القدم خلال العقد الثاني من القرن الماضي، وتأسس فريق كرة السلة التابع له بعد ذلك في العام ١٩٣٥. وكان فريقا «هبوعيل تل أبيب» يُعتبران، حتى منتصف العقد التاسع من القرن الماضي، بمثابة الفريق الريادي للمؤسسة الاشتراكية التي تضم قدامى المحاربين الإسرائيليين. وعقب التراجع الهائل الذي طرأ على مكانة المجتمع الإسرائيلي الهستدروتي وقوته (والذي شكل انعكاسًا رئيسيًا وتجسيدًا مباشرًا للتدهور الذي شهدته القوة النسبية التي كان الخطاب الجمهوري بشأن المواطنة يتمتع بها)، تم بيع ناديي «هبوعيل تل أبيب» للقطاع الخاص. وجاء هذا الإجراء في سياق الإجراءات العامة التي نُفذت لغايات تخصيص قطاع الرياضة الإسرائيلية وتحويلها إلى سلعة تجارية (Ben-Porat 1998). وقد أفضت هذه الإجراءات إلى خلخلة الهويات السياسية التي كانت غالبية النوادي الرياضية المهنية تحملها. وفي المقابل، بقي فريق «هبوعيل تل أبيب» وفريق «بيتار القدس» يشكلان الاستثناء البارز على هذه الحالة. وعلى الرغم من أن الجانب الأعظم من الأساس الديمغرافي التقليدي الذي كان تأييد فريق «هبوعيل» يرتكز عليه شهد اتجاهًا تصاعديًا، فلم يزل الخطاب والرموز التي يوظفها هذا الفريق مرتبطة بلغة الطبقة العاملة الكوزموبوليتانية المعولمة. فاللون الأحمر هو لون زي لاعبي الفريق، وما تزال أيقونة المطرقة والمنجل تشكل جزءًا من شعاره. والأدهى من ذلك أنه يمكن رؤية وجه تشي غيفارا على اللافتات التي يرفعها مناصرو الفريق ومشجعوه بين الفينة والأخرى.

وباتت هذه الرموز تحظى بقدر متعاظم من الحضور منذ نهاية العقد التاسع من القرن الماضي باعتبارها جزءًا من عملية تسعى إلى «إضفاء الطابع المهني» على ثقافة تشجيع الألعاب الرياضية في إسرائيل. فقد أضحى المشجعون يتمتعون بمستوى أعلى من التنظيم والتنسيق، وتم إنشاء المنظمات الرسمية لهؤلاء المشجعين، والتي يقترب بعضها إلى ارتكاب المخالفات القانونية بسبب ما يظهره أتباعها من سلوك عدواني. وفي العام ١٩٩٩، تم تأسيس فريق «هبوعيل تل أبيب ألتراس». وقد استلهم القائمون على هذا الفريق فكرة إنشائه من منظمات المشجعين الإيطالية، حيث ينعكس هذا الإلهام في اسم الفريق وتوجهه المعادي للمؤسسات وشعاراته المخيفة وتوجهاته العدوانية وتغزُّله بأعمال العنف. ولا يزيد المؤيدون الموالون لهذا الفريق (الذي يشوب الغموض حدوده بسبب افتقاره إلى العضوية الرسمية) عن عدة مئات من النشطاء، مع أن أجندتهم والأسلوب الذي يعتمدونه في الهتاف لفريقهم وتشجيعه يهيمن على المدرجات. ومن ناحية التركيبة الديمغرافية، يتألف معظم مشجعي «الألتراس» من الرجال في العقدين الثاني والثالث من أعمارهم. وينحدر هؤلاء من طبقات وأصول شتى، غير أنهم كلهم تقريبًا يجتمعون في علمانيتهم. وقد ترعرع بعض قادة هذه الجموع في أسر تتبنى فكرًا اشتراكيًا، كما اعتنق بعضهم هذه الأيديولوجيا في مرحلة لاحقة من حياتهم. ومع ذلك، يُعتبر التوجه الأيديولوجي الذي تعتمده هذه المجموعة اشتراكيًا، ويصطبغ بتوجه واضح يميل نحو اعتماد خطاب المواطنة الشمولي. وفي هذا السياق، فقد أخبرني أحد المشجعين المتحمسين لفريق «الألتراس»، والذي عرف عن نفسه بالحرف الاستهلالي من اسمه (ت): «معظمنا ينتمي إلى اليسار، ولكن هذا ليس شرطًا. فالشرط الذي يجب التقيد به يتمثل في تجنب العنصرية.»

ويُعتبر جمهور مشجعي «الألتراس» أعضاءً في شبكة «أنتيفا» (Antifa)، وهي شبكة عالمية تضم محاربين معادين للفاشية،

فخلال العقد الثامن من القرن الماضي، تبلورت العلاقة الثلاثية التي كانت تجمع بين حزب الليكود والمزراحيين وفريق «بيتار». لقد جعلت النجاحات التي سجلها فريق بيتار خلال العقدين الثامن والتاسع من القرن الماضي (والتي تمثلت في الفوز بثلاث بطولات وبكأس الدولة ثلاث مرات) منه فريقًا محبوبًا في أوساط دوائر أوسع من المشجعين، بمن فيهم الكثير من الأشكنازيين وحتى المواطنين العرب. غير أن الفريق حافظ على شعبيته في أوساط ما اصطُلح على تسميته في مرة من المرات «إسرائيل الثانية» بين صفوف المزراحيين. وفي السنوات الأخيرة، كان من شأن الصورة التي ظهر فيها «بيتار» على أنه ينتمي إلى اليمين أن أكسبته التأييد في أوساط المستوطنين في الضفة الغربية.

ويتعهد الكثيرون من اليساريين الذي يشجعون فرق كرة القدم بالولاء لها. وتجمع هذه الشبكة في عضويتها عشرات النوادي في جميع أنحاء أوروبا. كما تتولى هذه المجموعة الصغيرة من النشطاء المسؤولية عن إعداد اللافتة التي ترافق فريق «الألتراس» عندما يشارك في مباريات كرة القدم التي تُعقد في أوروبا: «نحن نمثل «هبوعيل»، وليس إسرائيل»، وهي عبارة تناهض النزعة القومية التي لا يوافق عليها مشجعو فريق «هبوعيل» ولا يرضون عنها. ويتميز أتباع فريق «الألتراس» بنشاطهم السياسي، ويمكن معاينة هذا النشاط في مشاركتهم في الاستعراض السنوي الذي يقام في الأول من أيار في مدينة تل أبيب. وفي العام ٢٠٠٨، صادق مؤيدو «الألتراس» بصورة رسمية على مرشحهم لخوض الانتخابات لمنصب عمدة المدينة، وهو دوف هانين، عضو «الكنيست» عن الحزب الشيوعي (وهو أحد مشجعي «هبوعيل تل أبيب» أيضًا).[٢]

وعلى خلاف معظم الفرق المهنية في إسرائيل، فقد جرى التخلي عن إجراءات الخصخصة التي خضع لها فريق «هبوعيل تل أبيب» في الآونة الأخيرة، حيث تملك جمعية تضم ما يربو على ١,٨٠٠ مشجع فريق كرة السلة. وتطبق هذه الجمعية الإجراءات الديمقراطية في إدارة الفريق. وفي أواخر العام ٢٠١٢، اشترى مشجعو الفريق ما نسبته ٢٠٪ من ملكية فريق كرة القدم. وليس هناك من شك في أن الإجراءات المناهضة للخصخصة تتماشى مع الأجندة السياسية التي يتبناها فريق «الألتراس».

وفي المقابل، أنشئ فريق «بيتار القدس» في العام ١٩٣٦. وخلال العقد الرابع من القرن الماضي، كان غالبية اللاعبين في صفوف هذا الفريق أعضاءً في ميليشيا «إرغون» أو «ليحي» السريتين، مما حدا بالسلطات البريطانية إلى طرد بعضهم خارج فلسطين. وفي الوقت الذي كانت فيه مختلف فرق «هبوعيل» تنتمي إلى المؤسسة الاشتراكية، فقد عمل فريق «بيتار القدس» على استقطاب الدخلاء والمضطهدين والضحايا. وفي هذا السياق، فقد استوعبت مدينة القدس العديد من اليهود الذي هاجروا في جماعات من البلدان العربية والإسلامية خلال العقدين الخامس والسادس من القرن الماضي (والذين يُشار إليهم في إسرائيل المعاصرة باليهود الشرقيين – المزراحيين). وقد ألفى هؤلاء المهاجرون أنفسهم ينحدرون إلى المراتب الدنيا من الهرم الاجتماعي والاقتصادي وإلى هامش المنظومة السياسية. وفضلًا عن ذلك، عانى بعض هؤلاء المهاجرين ممن لم ينضووا تحت راية حزب «ماباي» (وهو أحد الأحزاب التي وُلدت حركة العمل من رحمها) من قدر أكبر من التمييز في قطاعيّ العمل والإسكان.

وخلال هذه السنوات، توسعت دائرة مشجعي فريق «بيتار القدس» وتطورت إلى نوع من المعارضة السياسية والثقافية. وعلى المستوى السياسي، لم يزل هذا الفريق يصنَّف على أنه ينتمي لحزب «حيروت» اليميني الذي كان يتسم بالشعبوية ويناهض الاشتراكية ويبدي الالتزام بالتوسع الإقليمي. ومن الناحية الثقافية، كانت مدرجات فريق «بيتار القدس» تصدح بالأغاني والشعارات التي استعارها مرددوها من الترانيم الدينية اليهودية الشرقية بعدما عدلوها وطوعوها لغاياتهم. ومن الجدير بالذكر أن هذه الترانيم كانت مستبعدة من وسائل الإعلام التي تحتكرها الحكومة حتى مطلع العقد الثامن من القرن الماضي.

يرتبط تحول فريق «بيتار» من نادٍ محلي إلى فريق له أتباعه الوطنيون بالعلاقة الوثيقة التي جمعت بينه وبين زعماء حزب الليكود وبروز الإنجازات الرئيسة الأولى التي حققها (ومن جملتها الفوز بكأس الدولة في الدوري في العامين ١٩٧٦ و١٩٧٩) جنبًا إلى جنب مع الاضطرابات السياسية التي دفعت بحزب الليكود إلى سدة

الحكم في العام ١٩٧٧. وفي الواقع، أسهم الائتلاف الديمغرافي الذي مكّن حزب الليكود من الانتصار في تنامي قاعدة جمهور مشجعي فريق «بيتار».

فخلال العقد الثامن من القرن الماضي، تبلورت العلاقة الثلاثية التي كانت تجمع بين حزب الليكود والمزراحيين وفريق «بيتار». لقد جعلت النجاحات التي سجلها فريق بيتار خلال العقدين الثامن والتاسع من القرن الماضي (والتي تمثلت في الفوز بثلاث بطولات وبكأس الدولة ثلاث مرات) منه فريقًا محبوبًا في أوساط دوائر أوسع من المشجعين، بمن فيهم الكثير من الأشكنازيين وحتى المواطنين العرب. غير أن الفريق حافظ على شعبيته في أوساط ما اصطُلح على تسميته في مرة من المرات «إسرائيل الثانية» بين صفوف المزراحيين. وفي السنوات الأخيرة، كان من شأن الصورة التي ظهر فيها «بيتار» على أنه ينتمي إلى اليمين أن أكسبته التأييد في أوساط المستوطنين في الضفة الغربية. وعلى غرار فريق «هبوعيل تل أبيب»، فقد تمت خصخصة «بيتار»، غير أن هذا الأمر لم يؤثر على صورته الشعبية باعتباره معقلًا لليمين السياسي الإسرائيلي.

وحسب ما يشير إليه الجدول (١) أدناه، تتميز الخصائص الديمغرافية التي يتسم بها المتعاطفون مع فريق «هبوعيل تل أبيب»[٣] عن مشجعي فرق كرة القدم الأخرى في الدوري الممتاز الإسرائيلي. ونحن نشير إلى هؤلاء بصفة «متعاطفين»، وليس «مشجعين»، بالنظر إلى أن متطلبات الانضمام إلى هذه الفئة ضيقة إلى حد كبير. وتضم هذه الفئة أي شخص يعتبر نفسه مشجعًا، حتى لو كان تشجيعه لهذا الفريق في حدوده الدنيا. وهذا يعني أن هذه الفئة لا تعكس بالضرورة سمات المشجعين في المدرجات الأخرى، وإنما تعكس النمط الديمغرافي لأولئك الذين يحملون نظرة تعاطف مع هذا الفريق. وبموجب النتائج التي خلص إليها هذا المسح، يتميز مؤيدو «هبوعيل» بمستوى أكبر من التعليم، كما أنهم يميلون إلى تعريف أنفسهم على أنهم أشكنازيون، وتقل نسبة الذين ينتمون منهم إلى الطائفة المزراحية إلى حد كبير. ومع ذلك، تمثل العلمانية أبرز خاصية تسم هؤلاء المؤيدين. ومن جانب آخر، يغلب على المتعاطفين مع فريق «بيتار القدس» انتماؤهم إلى طائفة المزراحيين، وهم على درجة أكبر من التدين بالمقارنةمع بقية مشجعي كرة القدم في إسرائيل. كما يتمتع هذا الفريق بأكبر نسبة من المؤيدين الذين يقطنون في الضفة الغربية، بينما لا يعيش أي من مؤيدي فريق «هبوعيل تل أبيب» في هذه المنطقة.

الجدول (١): الخصائص الديمغرافية التي تسم المتعاطفين مع فريقيّ «هبوعيل تل أبيب» و«بيتار القدس»

	فريق «هبوعيل تل أبيب» (عدد المستطلعين = ٣٧)	فريق «بيتار القدس» (عدد المستطلعين = ٦٧)	مشجعو جميع الفريق (عدد المستطلعين= ١٥٤)
متدينون	٪١٤	٪٣٨	٪١٦
علمانيون	٪٦٢	٪٢١	٪٤١
أشكنازيون	٪٥٤	٪٣٦	٪٤٢
مزراحيون	٪٢٤	٪٤٦	٪٤٠
حاصلون على درجة جامعية	٪٤٩	٪٣٠	٪٣٩
يعيشون في الضفة الغربية	٪٠	٪١٠	٪٣

وفي الوقت الذي لا يُعتبر فيه التوجه اليميني الذي يتبناه فريق «بيتار القدس» وليد اللحظة، فقد برزت نبرة جديدة معادية للعرب على ألسنة مشجعي هذا الفريق منذ العقد التاسع من القرن الماضي. وفي الواقع، يُعد فريق «بيتار» الفريق المهني الإسرائيلي الوحيد الذي لم يسبق له أن عيَّن لاعبًا عربيًا في صفوفه. وفضلًا عن ذلك، لم يعين سوى عدد ضئيل من الفرق المهنية اليهودية لاعبين عربًا بين صفوفهم حتى حقبة التسعينيات من القرن نفسه. ومنذ ذلك الحين، دأبت الفرق الأخرى على استقطاب اللاعبين العرب، بخلاف فريق «بيتار». وفي هذه الأيام، يعتبر بعض غلاة مشجعي فريق «بيتار» أن معاداة العرب هي بمثابة صفة أصيلة لا تنسلخ عن هوية هذا النادي. وفي هذا السياق، فقد جرت عرقلة المبادرات التي طرحتها إدارة النادي لاستقطاب لاعب عربي وضمه إلى صفوف الفريق بفعل الضغط الذي مارسه هؤلاء المشجعون. وفي دراسة أُعدت حول الإسرائيليين من مشجعي كرة القدم، سُئل ١١٣ مشجعا يهوديا من مشجعي أكبر أربعة نواد إسرائيلية عما إذا كانوا يؤيدون أو يعارضون ضم لاعبين عرب إلى الفرق التي يشجعونها. ولم يعارض سوى ١٤ مشجعا هذه الفكرة – وكان من بين هؤلاء ١٢ مشجعًا من مشجعي فريق «بيتار القدس» (Ben Porat 2007:191). وهذا يعني أن هناك أغلبية حتى في أوساط مشجعي فريق «بيتار» ممن يؤيدون ضم اللاعبين العرب، غير أن هذه الأغلبية المعتبرة تتمتع بما يكفيها من القوة التي تمكنها من الحيلولة دون إحداث أي تغيير في هذه السياسة.

لقد بات الموقف المعادي للعرب يكتسب نزعة حربية قتالية أكبر منذ العام ٢٠٠٠. ففي هذا الإطار، ترتبط منظمة «لا فاميليا» (La Familia) التي تضم مشجعي فرق كرة القدم، والتي تأسست في العام ٢٠٠٥، بروابط وثيقة مع ساسة اليمين المتطرف، وهي تتماهى بصورة علنية مع حركة "كاخ" الخارجة عن القانون والتي تدعم إقامة حكومة دينية (ثيوقراطية) وطرد جميع العرب من إسرائيل. ويشاهد المرء رايات هذه الحركة،٥ التي تعتبرها إسرائيل والولايات المتحدة الأميركية والاتحاد الأوروبي بأنها منظمة إرهابية، بين الفينة والأخرى في إستاد «بيتار»، وكثيرًا ما يشاهَد الزعماء السياسيون من اليمين المتطرف (والذين كان بعضهم نشطاء سابقون في حركة «كاخ»، وينشطون في هذه الآونة في أحزاب أخرى تحمل مسميات مختلفة) على المدرجات التي تشجع هذا الفريق.

وتشتمل ذخيرة الهتافات التي تجري على ألسنة مشجعي فريق «بيتار القدس» على بعض الرسائل الفظة التي تصب في معاداة العرب والمسلمين. وفيما يلي مثال على أنشودة يشيع ترديدها في أوساط مشجعي هذا الفريق حول نجم فريق «هبوعيل تل أبيب»، سليم طعمة:

ماذا يفعل سليم هنا؟ / لا أعرف! / ماذا يوجد هنا؟ أنا أسأل / أسمع من كل جانب: / يا طعمة، هذه أرض إسرائيل. / هذه أرض إسرائيل، يا طعمة / هذه دولة اليهود / أنا أكرهك يا سليم طعمة / أنا أكره كل العرب!».

ومن جملة المضامين العدوانية الأخرى التي يطلقها مشجعو فريق «بيتار القدس» الألفاظ التي تنطوي على ازدراء النبي محمد عليه السلام والشعارات التي تتسم بالعنف، من قبيل «أدعو أن تحترق قريتكم»، «أقسم بالرب أن العرب لن يبقوا هنا»، ناهيك عن أشهر شعار إيقاعي يصدر عن هؤلاء المشجعين: «الموت للعرب».[٤]

لقد بات الموقف المعادي للعرب يكتسب نزعة حربية قتالية أكبر منذ العام ٢٠٠٠. ففي هذا الإطار، ترتبط منظمة «لا فاميليا» (La Familia) التي تضم مشجعي فرق كرة القدم، والتي تأسست في العام ٢٠٠٥، بروابط وثيقة مع ساسة اليمين المتطرف، وهي تتماهى بصورة علنية مع حركة «كاخ» الخارجة عن القانون والتي تدعم إقامة حكومة دينية (ثيوقراطية) وطرد جميع العرب من إسرائيل. ويشاهد المرء رايات هذه الحركة،[٥] التي تعتبرها إسرائيل والولايات المتحدة الأميركية والاتحاد الأوروبي بأنها منظمة إرهابية، بين الفينة والأخرى في إستاد «بيتار»، وكثيرًا ما يشاهَد الزعماء السياسيون من اليمين المتطرف (والذين كان بعضهم نشطاء سابقون في حركة «كاخ»، وينشطون في هذه الآونة في أحزاب أخرى تحمل مسميات مختلفة) على المدرجات التي تشجع هذا الفريق. ومما تجدر الإشارة إليه إلى أن المحاربين القدامى، الذين كانوا ينضوون تحت لواء ميليشيا «الإرغون»، حاولوا النأي بأنفسهم عن حركة «كاخ» خلال العقد السابع من القرن الماضي بعدما نشأت هذه الحركة، بل إنهم اعترضوا على ما أقدمت عليه الحركة من استخدام شعارها. ولكن تغيرت الكثير من المعطيات والظروف منذ ذلك الحين. وهذا لا يعني أن الغالبية من مشجعي فريق «بيتار القدس» يؤيدون الأيديولوجيا التي تعتنقها حركة «كاخ»، بل إنه لا يمكن غض الطرف عن نطاق هذا التأييد، الذي يراه المرء ويسمعه دون مواربة على مدرجات ملاعب كرة القدم.

وقد حاول العلماء المتخصصون في دراسة المجتمع الإسرائيلي تفسير المشاعر المعادية للعرب في أوساط المزراحيين سواء خلال تنافسهم مع العرب على الوظائف ذات المردود المادي المتدني (Peled 1990) أو حاجتهم إلى إنكار العنصر العربي من هويتهم (Shohat 1988). ويبدو أن تبنّي نظرة قومية وعدوانية، تنطوي في بعض الأحيان على كراهية العرب، والتأكيد على هذ النظرة تمكّن المزراحيين من التعمية على القواسم المشتركة التي تجمعهم بالعرب الفلسطينيين. وتبرز نقطة الضعف التي تعتري هذه التفسيرات في حالة فريق «بيتار» بصورة جلية لا مواربة فيها: فهناك الكثير من الفرق الأخرى التي تهيمن عليها قاعدة واسعة من المشجعين المزراحيين والتي لم تضم لاعبين عربًا إلى صفوفها، حيث لم ينظم المزراحيون الذي يشجعون هذه الفرق حركة ترمي إلى الحيلولة دون ضم هؤلاء اللاعبين. وفضلًا عن ذلك، لا يقف المرء على خطاب أكثر تطرفًا من الخطاب المعادي للعرب مثلما هو الحال في فريق «بيتار». وقد يرتبط الموقف الفريد الذي يتبناه هذا الفريق بالتفاعل القائم بين الخلفية الإثنية التي ينحدر منها مشجعو هذا الفريق، والتطرف السياسي الذي نما في مدينة القدس على

بيتار القدس: حربة اليمين.

نحو خاص منذ العام ١٩٦٧، والاستثمارات المحسوبة والمثمرة التي ضختها حركات، من قبيل حركة «كاخ» وفروعها، في قاعدة مشجعي الفريق المذكور.

ومهما كان السبب الذي يغذي مشاعر معاداة العرب بين صفوف مشجعي فريق «بيتار القدس»، فإن هذه التعبيرات العنصرية تمكّن مشجعي فريق «هبوعيل تل أبيب» من النظر إلى العرب على أنهم «الآخر» السياسي النهائي. وتساور المرء الشكوك في أن الدوائر الأعم من مشجعي فريق «هبوعيل» تتماهى مع الأجندة الاشتراكية التي يتبناها فريق «الألتراس». فبالنسبة إليهم، قد لا يزيد شعار المطرقة والمنجل عن مجرد كونه دالة اعتباطية على الهوية، وتنفصل عن الأصول التاريخية التي تنحدر منها هذه الهوية. كما أن مشاعر معاداة القومية التي يحملها فريق «الألتراس» ليست على قدر معتبر من الشيوع في أوساط القاعدة العامة التي تضم مشجعيه. ومع ذلك، تكتسب الرسالة المناهضة للعنصرية قدرًا أكبر من القبول. وفي الوقت الذي باتت فيه الشعارات والهتافات المعادية للعرب شائعة جدًا على مدرجات الدوري الممتاز في إسرائيل، فمن النادر أن يسمع المرء هذه التعبيرات من جماهير الفرق التي أضحى ضم اللاعبين العرب إلى صفوفها يشكل جزءًا من تقليد نواديها، وذلك كما هو الحال في فريق «مكابي حيفا» أو فريق «هبوعيل تل أبيب». كما يندرج الخطاب المناهض للعنصري ضمن الواقع الاجتماعي المادي والدعم المتواصل الذي تحظى بها إدارة نوادي الفرق الرياضية. ويشتمل هذا الواقع، على سبيل المثال، على تقليد عريق في ضم اللاعبين العرب واستيعاب مشجعيهم. ويستطيع المرء أن يرى على موقع «أدوم أوليه» (AdomOleh) على شبكة الإنترنت أن هؤلاء المشجعين يفتخرون بنادٍ كان فريق كرة القدم التابع له هو أول نادٍ يهودي إسرائيلي يضم لاعبًا عربيًا ويعيّنه قائدًا لفريقه. كما يُعتبر فريق «هبوعيل تل أبيب» شريكًا في المشروع التعليمي والاجتماعي، الذي أنشأه المالك السابق للنادي. ويمثل هذا المشروع منظمة توظف كرة القدم من أجل الجمع بين الأطفال من إسرائيل والضفة الغربية والأردن من أجل تعزيز التعايش فيما بينهم.

وفضلًا عما تقدم، يمتد نطاق النزعة الليبرالية بحيث يشمل الموقف السائد تجاه العمال الضيوف والمقيمين الذين لا يحملون وثائق تثبت إقامتهم في إسرائيل. فمنذ أواسط العقد التاسع من القرن الماضي وفي العام ٢٠٠٧ على وجه التحديد، دخل عشرات الآلاف من الأفارقة الذين قدِموا من السودان وأرتيريا إلى إسرائيل عبر حدودها مع مصر. وقد تحول وجود هؤلاء الأشخاص في إسرائيل إلى قضية سياسية تثير قدرًا لا يستهان به من الجدل.

تنبع الحماسة التي تحثّ على تبنّي النزعة المناهضة للعنصرية باعتبارها جزءًا من هوية النادي من سببين متداخلين. فبادئ ذي بدء، باتت هذه النزعة تشكل وسيلة تميز فريق "هبوعيل تل أبيب" عن الفرق الأخرى، ولا سيما فريق "بيتار القدس". وبناءً على ذلك، صارت النزعة المناهضة للعنصرية تمثل علامة تثير الإطراء الذاتي لدى العديد من مشجعي فريق "هبوعيل"، بعيدًا عن الدائرة الضيقة لمشجعي فريق "الألتراس". وثانيًا، يميل مشجعو فريق "هبوعيل"، باعتبارهم علمانيين، إلى رفض الخطاب الإثني الأصولي بشأن المواطنة. وينتمي الإسرائيليون العلمانيون في معظمهم إلى الطبقتين العليا والوسطى. ولذلك، لا يشير مصطلحا 'اليسار' و'اليمين' في إسرائيل، في العادة، إلى الاقتصاد، وإنما إلى الموقف الذي يتبناه الإسرائيلي تجاه الصراع الإسرائيلي-الفلسطيني، وموقع الدين في السياسية وحدود المواطنة الإسرائيلية.

وأعلنت سلطة الهجرة والسكان، خلال شهر حزيران ٢٠١٢، أنه سيتم ترحيل ٤,٠٠٠ مهاجر أفريقي ممن لم يتمكنوا من الحصول على وضع لاجئ في إسرائيل (وذلك على أساس بلدانهم الأصلية). وكان من بين المهاجرين الذين كان من المفترض ترحيلهم خمسة أطفال من بين لاعبي كرة السلة في فريق «هبوعيل تل أبيب»، حيث اتخذ النادي خطوات فاعلة بهدف حشد الدعم المطلوب لقضيتهم. وفي صيف العام ٢٠١٢، نظم فريق كرة السلة في نادي «هبوعيل تل أبيب» مخيمات صيفية لأطفال العمال الضيوف والمقيمين غير المسجلين في إسرائيل. كما كان المذيع يعلن معارضة النادي لقرار الترحيل المذكور في عدد ليس بالقليل من مباريات كرة السلة التي خاضها فريق اللاعبين البالغين.

وتنبع الحماسة التي تحثّ على تبنّي النزعة المناهضة للعنصرية باعتبارها جزءًا من هوية النادي من سببين متداخلين. فبادئ ذي بدء، باتت هذه النزعة تشكل وسيلة تميز فريق «هبوعيل تل أبيب» عن الفرق الأخرى، ولا سيما فريق «بيتار القدس». وبناءً على ذلك، صارت النزعة المناهضة للعنصرية تمثل علامة تثير الإطراء الذاتي لدى العديد من مشجعي فريق «هبوعيل»، بعيدًا عن الدائرة الضيقة لمشجعي فريق «الألتراس». وثانيًا، يميل مشجعو فريق «هبوعيل»، باعتبارهم علمانيين، إلى رفض الخطاب الإثني الأصولي بشأن المواطنة. وينتمي الإسرائيليون العلمانيون في معظمهم إلى الطبقتين العليا والوسطى[٦]. ولذلك، لا يشير مصطلحا «اليسار» و«اليمين[٧]» في إسرائيل، في العادة، إلى الاقتصاد، وإنما إلى الموقف الذي يتبناه الإسرائيلي تجاه الصراع الإسرائيلي–الفلسطيني، وموقع الدين في السياسية وحدود المواطنة الإسرائيلية.

وينطوي الصراع الذي يخوضه فريق «هبوعيل تل أبيب» على بعد آخر يرتبط بعلاقة مع المقارنة بين مدينتي تل أبيب والقدس باعتبارهما قطبين متضادين من أقطاب الهوية الإسرائيلية. وفي هذا المقام، يشير أوري رام (Uri Ram) إلى أن:

«... تراجع النزعة القومية، وظهور النزعة الفردانية، وانتشار التعددية والهيمنة الشمولية للرأسمالية – تمركزت بمجموعها ومن الناحيتين الفعلية والرمزية في تل أبيب، وليس في القدس. وفي هذه الأثناء، ما فتئ التراجع الذي طرأ على النزعة القومية والإثنية والأصولية التي تحملها الصهيونية الجديدة – وهي عبارة عن توجه يرتكز في القدس ويضع نصب عينيه عليها – يشهد تزايدًا مضطردًا كذلك. ولا يجافي النقاد الصواب في الافتراض الذي يقولون فيه بأن القدس وتل أبيب تنتميان إلى النظام نفسه. وعلى الرغم من التضارب الصارخ القائم بينهما، فهما تنتميان إلى المشروع الكولونيالي الصهيوني. ومع ذلك، فبالرغم من هذا القاسم المشترك الذي يجمع ما بين المدينتين، فإن كل واحدة منهما تنطوي على قدرات كامنة تميزها عن الأخرى.(Ram 2005:32)

تمثل الأنشودة التالية (التي سجلها غال سوكولفسكي، وهو أحد مشجعي فريق «هبوعيل تل أبيب»، في العام ٢٠٠٠) تعبيرًا صريحًا عن الميول ما بعد القومية التي يعزوها رام (Ram) إلى تل أبيب: «ضعوا القدس في الأردن / وقسموها إلى قدسين / ضعوا القدس في الأردن / وأعطوها للفلسطينيين/ ضعوا القدس في الأردن / في حدود ٦٧ / لأنه ليس هناك حاجة لتيدي [إستاد «بيتار»]، ولا لـ«بيتار» / ولا لحائط المبكى، ولا للكنيست / لأن كل شيء في هذه المدينة ليس ضروريًا ...»

وقد اقتُبست ألحان هذه الأغنية من أغنية تمجد القدس، وهي

فكلما زادت وتيرة استخدام المحرقة في الخطاب الذي يرمي إلى شرعنة السياسات، ازداد تقويض الصفة المقدسة التي تنطوي عليها باعتبارها حرمة لا يجوز المساس بها. وبذلك، تُعتبر الاستعارات التي تشير إلى المحرقة في مضمونها بمثابة 'أدوات' متوفرة في 'صندوق أدوات' الثقافة (Swidler 1986) لدى الإسرائيليين اليهود. ففي الخطاب الإسرائيلي الداخلي، ما ينفك الخصوم السياسيون يشكلون موضع مقارنة مع النازيين منذ خمسينيات القرن الماضي. ويُنظر إلى هذه المقارنة، في أحوال ليست بالقليلة، باعتبارها شكلًا من أشكال الاحتجاج. وطرأت خلال العقد الأول من القرن الواحد والعشرين، زيادة ملحوظة على وتيرة توظيف حادثة المحرقة على الصعيدين الخارجي والداخلي. فعلى المستوى الدولي، ولا سيما في أوروبا، رأت الحكومات الإسرائيلية أنه من الصعوبة عليها أن تفسر السياسة التي تنتهجها في الأرض المحتلة، فسعت بالتالي إلى توظيف الميزات الأخلاقية التي تتيحها المحرقة.

أغنية أُلفت عقب حرب العام ١٩٦٧ واحتلال القدس الشرقية. ويجري الاحتفاء بهذه الواقعة من خلال عطلة وطنية رسمية – هي يوم القدس. وقد باتت الأغنية الواردة أعلاه تمثل عنصرًا أصيلًا في الذخيرة الموسيقية التي تذاع في هذه المناسبة. ومع مرور السنوات، لم يعُد معظم الإسرائيليين اليهود العلمانيين يتبنون هذه العطلة – على الرغم من الصفة الرسمية التي تكتسيها –ولا يحتفلون بها، حيث بات الواحد منهم يمضي يوم القدس في تل أبيب دون أن يشعر بأن هذا اليوم هو يوم عطلة رسمية. ومن الجدير بالملاحظة أن هذه الأغنية ليست «أغنية سلام» تدعو إلى إنجاز المصالحة بين إسرائيل وجيرانها، بل إن مؤلفها ببساطة لا يلقي بالًا للقدس ولا لمكانتها الرمزية. فهذه الأغنية تزخر بالصورة النمطية التي تظهر فيها تل أبيب وبالنظرة العلمانية التي تقوم على فلسفة اللذة والمتعة، والتي لا حاجة فيها إلى الرموز القومية–الدينية من قبيل الحائط الغربي . بل إن العلمانيين يسخرون، في هذا السياق كذلك، من رموز رئيسة من رموز السيادة الإسرائيلية، مثل الكنيست (البرلمان).

المحرقة: حرمة مقدسة أو مصدر لرأس المال الأخلاقي؟

من جملة العوامل الأخرى التي تُشيع الفُرقة بين مشجعي فريقيّ «هبوعيل تل أبيب» (ولا سيما فريق كرة السلة) الاستخدام المتواتر للمصطلحات المرتبطة بالمحرقة (الهولوكوست). وقد شكّل توظيف هذه المصطلحات مصدرًا للتوتر والمواجهة بين هؤلاء المشجعين من جهة وبين المشجعين وإدارة النادي من جهة أخرى. ولم تحقق المساعي الحثيثة التي أطلقها المشجعون الذين يتوخون التوازن في نهجهم من أجل القضاء على هذه الظاهرة سوى نجاح محدود.

ويستدعي تفسير إدراج المصطلحات المتصلة بالمحرقة ضمن ذخيرة هتافات المشجعين دراسة الموقع المحوري الذي تتبوأه هذه الواقعة في الثقافة العامة الإسرائيلية (Zertal 2005). ففي المقام الأول، تشكل المحرقة جزءًا من السِّير الذاتية لأسر عدد لا يستهان به من السكان اليهود الإسرائيليين، ولا سيما من أبناء النخبة، التي يزيد فيها تمثيل اليهود من أصول أوروبية. وفي المقام الثاني، فقد جرى تضمين المحرقة والتفسير الأخلاقي الذي ساقته الصهيونية لها (والذي ينطوي على ضرورة إقامة قوة يهودية مستقلة) في نظام التعليم العام في إسرائيل. وفي هذه الأيام، ينظر عموم الإسرائيليين إلى المحرقة باعتبارها السبب الجوهري الذي يقف وراء وجود دولة إسرائيل. وبذلك، فقد حُمِّلت هذه الحادثة بخصائص مقدسة حولتها إلى عنصر رئيس من عناصر الديانة المدنية الإسرائيلية (Liebman and Don–Yehiye 1983:137). وأخيرًا، ينظر الإسرائيليون بعمومهم إلى المحرقة باعتبارها مصدرًا بارزًا من مصادر رأس المال الأخلاقي الذي يشرعن مختلف أركان السياسة الإسرائيلية (Zertal 2005)، ولا سيما في سياق الصراع الإسرائيلي–الفلسطيني.

ومع ذلك، يسود توتر واضح بين العاملين الثالث والرابع المذكورين أعلاه. فكلما زادت وتيرة استخدام المحرقة في الخطاب الذي يرمي إلى شرعنة السياسات، ازداد تقويض الصفة المقدسة التي تنطوي عليها باعتبارها حرمة لا يجوز المساس بها. وبذلك، تُعتبر الاستعارات التي تشير إلى المحرقة في مضمونها بمثابة «أدوات» متوفرة في «صندوق أدوات» الثقافة (Swidler 1986)

لدى الإسرائيليين اليهود. ففي الخطاب الإسرائيلي الداخلي، ما ينفك الخصوم السياسيون يشكلون موضع مقارنة مع النازيين منذ خمسينيات القرن الماضي. ويُنظر إلى هذه المقارنة، في أحوال ليست بالقليلة، باعتبارها شكلًا من أشكال الاحتجاج. وطرأت خلال العقد الأول من القرن الواحد والعشرين، زيادة ملحوظة على وتيرة توظيف حادثة المحرقة على الصعيدين الخارجي والداخلي. فعلى المستوى الدولي، ولا سيما في أوروبا، رأت الحكومات الإسرائيلية أنه من الصعوبة عليها أن تفسر السياسة التي تنتهجها في الأرض المحتلة، فسعت بالتالي إلى توظيف الميزات الأخلاقية التي تتيحها المحرقة. وعلى الصعيد الداخلي، نظرت الجماعات الدينية–الصهيونية إلى القرار بشأن الانسحاب من قطاع غزة في العام ٢٠٠٥ على أنه يشكل تهديدًا يمس وجود دولة إسرائيل. وبناءً على ذلك، فسرعان ما عقدت هذه الجماعات المقارنة بين الجهات التي اتخذت هذا القرار والجهات التي كُلفت بتنفيذه، وشبهتها بالنازيين. وقد كشف استخدام اللغة المجازية التي ترمز إلى المحرقة في أوساط مشجعي فريق «هبوعيل تل أبيب» عن التناقض القائم بين المحرقة باعتبارها حرمة تكتسي صفة القداسة والمحرقة باعتبارها أداة سياسية.

وبسبب غياب الوثائق ذات الصلة، فمن الصعوبة على المرء أن يحدد من «بدأ» أولًا. ومع ذلك، فليس هناك من شك في أن مشجعي فريق «هبوعيل تل أبيب» عملوا على توجيه استخدام اصطلاحات المحرقة على نحو محكم ومكثف نحو خصمهم الحضري «مكابي تل أبيب» (وهو الفريق الذي يقع على رأس قائمة الفرق التي يكرهها جمهور «الألتراس»). وقد ظهر استخدام هذه المصطلحات بصورة منتظمة في مطلع التسعينيات من القرن الماضي على مدرجات كرة السلة، ومن ثم امتد إلى مدرجات ملاعب كرة القدم.

وفي السياق المحلي الذي يميز مدينة تل أبيب عن سواها، كان فريق «هبوعيل» هو الحلقة الأضعف. أما فريق «مكابي تل أبيب» فقد فاز بعدد أكبر بكثير من الألقاب (وكان هذا هو الحال في لعبة كرة القدم حتى نهاية العقد السابع من القرن الماضي وحتى هذه الآونة في كرة السلة). وقد استهوى فريق «مكابي» عددًا أكبر من المشجعين، وكانت الفجوة في أعداد مشجعي هذين الفريقين بارزة في كرة السلة على نحو خاص. ويُعتبر فريق كرة السلة التابع لنادي «مكابي تل أبيب» أكثر الفرق الرياضية نجاحًا في إسرائيل، كما أنه أحد أنجح الفرق على مستوى دوري كرة السلة في أوروبا. وحتى العام ٢٠١٢، فاز هذا الفريق بـ٥٠ بطولة على المستوى الوطني، و٣٩ كأس دولة وخمس بطولات على المستوى الأوروبي. وفي الفترة الواقعة بين العامين ١٩٧٠ و١٩٩٠، فاز الفريق المذكور بـ٢٣ بطولة على التوالي. وقد سمح النجاح الذي سطره الفريق خلال هذه الفترة لناديه باكتساب ميزة مالية لا تضاهى على حساب بقية فرق كرة السلة في إسرائيل، وهو إنجاز مكّن النادي من شراء أي لاعب إسرائيلي كان ينظر إليه على أنه يشكل تهديدًا محتملا لسيطرته وهيمنته على الفرق الأخرى على الساحة الرياضية. وكانت هذه السنوات محبِطة بالنسبة إلى مشجعي فريق «هبوعيل تل أبيب». وقد أفضت صورة هذا العدو الذي لا يُهزم ويتسم بقسوته ونجاعته، وهي الصورة التي شكلتها الأدوات التفسيرية التي تزخر بها الذاكرة الجمعية الإسرائيلية اليهودية، إلى نشوء المعادلة «مكابي = النازيين» (كما عززت هذه المعادلة الدوافع التي تولدت لدى المشجعين الذين لا يحملون الأيديولوجيا من جمهور فريق «هبوعيل» للانتقام من مشجعي «مكابي» الذين أطلقوا عليهم تسمية «الشيوعيين»). وفي العام ١٩٩٣، وبعد أن خسر فريق «مكابي» البطولة للمرة الأولى على مدى ٢٣ سنة، احتفل مشجعو فريق «هبوعيل» بهذا الحادث برسم الصليب المعقوف على سيارة مدير الفريق، شمعون مزراحي.

وفي سياقات معينة في الحيز العام الإسرائيلي، يجري إضفاء الغموض والضبابية على التمييز بين «النازي» و«الألماني»، ويُستخدم هذان المصطلحان بصورة متبادلة. وبذلك، سرعان ما صار مشجعو فريق «هبوعيل» يشيرون إلى فريق «مكابي» بصفته فريقًا ألمانيًا. وانتشرت هذه العلاقة فيما بعد من ملاعب كرة السلة إلى مدرجات ملاعب كرة القدم. وخلال العقد الأول من هذا القرن، انتشرت «أغاني الألمان» التالية بين صفوف مشجعي «هبوعيل تل أبيب» في الألعاب التي كان فريقهم يخوضها ضد فريق «مكابي» (وكانت ألحان هذه الأغاني مقتبسة من أغنية «أنت شروق شمسي» («You are my sunshine»)):

رقم واحد ألماني / رقم اثنان ألماني / رقم ثلاثة ألماني [إلى آخره حتى الرقم ١٠، مع استثناء رقم ٨)، البوابة ١١ [موقع إستاد مشجعي فريق «مكابي» الذي يشتهر بصخبه) ألماني / المدرب ألماني / الإدارة ألمانية / المدلك ألماني / أمين الصندوق ألماني / رقم ٨ هو نيمني – ألماني كبير !»

يشير السطر الأخير من هذه الأغنية إلى أفي نيمني، وهو

لاعب بارز في صفوف فريق «مكابي» خلال تسعينيات القرن الماضي والعقد الأول من هذا القرن، وكان هو اللاعب المفضل لدى مشجعي الفريق ورمزه. وقد وزع مشجعو فريق «هبوعيل» صورة معدلة لنيمني وهو على هيئة هتلر بشاربه المعهود على شبكة الإنترنت. كما حمّل هؤلاء المشجعون مقطع فيديو ساخر بعنوان «هتلر غاضب»[٧] على الشبكة، حيث يبدو هتلر فيه حانقًا بسبب القرار الذي اتخذه مالك فريق «مكابي تل أبيب» بإقالة نيمني من موقعه كمدرب للفريق في العام ٢٠١١.

وطالما كان جمهور فريق «الألتراس» يسم خصمه الرياضي باعتباره نازيًا، كانت ردود الفعل العامة عدوانية، وليست هستيرية. فقد طرأ تغيير ملموس على هذه النبرة بعدما بدّل الخطاب أدوار الضحية والجلاد. ففي مطلع العقد الأول من هذا القرن، وبعد فترة وجيزة من تأسيس فريق «الألتراس»، تمنى مشجعو «هبوعيل» «الانتقام» من «النازيين». كما شهدت هذه الفترة ولادة شعار جديد: «لتُصِب المحرقة مكابي». ومنذ ذلك الحين، بات من الشائع أن يسمع المرء مشجعي «هبوعيل» يصبون اللعنات على لاعبي فريق «مكابي» وإدارته وجمهوره ويدعون عليهم بأن يجدوا أنفسهم في الغيتوهات وغرف الغاز والمحارق. فعلى سبيل المثال، تُستهل الأغنية الواردة أعلاه «ضعوا القدس في الأردن» بالعبارات «ضعوا مكابي في الغرف / واملأوها بالغاز». وفي أغنية شائعة أخرى، يهتف مشجعو الفريق: «يقولون: «لاعبو مكابي نازيون / عاهرات لعينات» / نتمنى أن تموتوا، حرقًا وأنتم أحياء». وتترافق كلمة «نازيين» التي يطلقها المشجع في بعض الأحيان مع رفع يده في إشارة إلى التحية العسكرية النازية. ومن المؤكد أن مشهد مئات الإسرائيليين اليهود الشبان الذين يؤدون تحية هتلر (والتي تُعد جريمة في بعض البلدان الأوروبية) في وسط مدينة تل أبيب يثير ردة الفعل والصدمة التي يرغبون في إثارتها. وقد باتت الميوعة التي تسم أدوار الضحية–الجلاد تشكل معلمًا بارزًا من معالم اللغة المجازية التي يسوقها جمهور «الألتراس» في معرض الإشارة إلى المحرقة (الهولوكوست). وعلاوة على ذلك، يشار إلى الملعب البيتي لنادي «مكابي تل أبيب» لكرة السلة، وهو ملعب «ياد إلياهو»، على أنه «الرايخستاغ»(Reichstag) أو «ياد فاشيم» (YadVashem) (وهو الموقع الوطني لتخليد ذكرى المحرقة في إسرائيل).

وفي هذا السياق، تفسر إحدى مشجعات فريق «هبوعيل تل أبيب» والتي تستخدم هذه المصطلحات، سلوكها في مقابلة أجراها أحد المواقع الإخبارية الإسرائيلية معها:

> يميل مشجعو «هبوعيل» إلى الإعلان عن أنفسهم على أنهم خارجون عن التيار العام. وأنا أختار هذا السلوك المتطرف. فإستاد كرة القدم هو بالنسبة لي [مكان]أنفّس عن نفسي فيه، فكل شيء فيه جائز ومسموح. وأنا أستمتع بالتفوه بهذه التعبيرات لأنني أقول ما يناسبني منها. أما أولئك الذين لا يتقبلون هذا الأمر – فهذا حقهم. إن مستوى التعليم العالي الذي نتمتع به يمكّننا من استخدام التطرف دون أن نوسم بأننا «عرصات» مثل الآخرين.[٨]

ويأتي التبرير الذي يساق لتسويغ هذا التصرف على مستويات عدة. فبادئ ذي بدء، بما أننا على مستوى متقدم من التعليم (ونحن بالتالي عقلانيون)، فنحن لا نضفي قوة سحرية على الكلمات (مثلما يفعل ذلك أشخاص آخرون أقل عقلانية، ولو فعلوا ذلك – «فهذا حقهم»، بمعنى مشكلتهم). وثانيًا، لن يُنظر إلينا على أننا «عرصات»، وهي الكلمة العبرية لجمع كلمة «عرص» بالعربية والتي تعني بمدلولها الحرفي «قواد». وتشير هذه الكلمة في العبرية العامية إلى مصطلح يُقصد به ازدراء الصورة النمطية لشاب من الطبقة الدنيا، عادةً ما ينحدر من أصل مزراحي (وهذه عبارة عن مجموعة من الصفات النموذجية التي تنطلي على الصورة النمطية لمشجعي فريق «بيتار»). ومن التبريرات المحتملة الأخرى، والتي لم تعبّر عنها المشجعة المذكورة أعلاه بصورة صريحة، أن مشجعي «هبوعيل، الذين يشكلون جزءًا من الثقافة العلمانية ونزعة ما بعد القومية السائدة في تل أبيب، يشعرون بدرجة أقل من الالتزام بتسويغ الرموز والخرافات اليهودية التي توحدهم مع بعضهم بعضًا. كما يخضع هؤلاء لعدد أقل من القيود التي تردعهم عن تقويض هذه الرموز (كما هو الحال في سخريتهم من مدينة القدس).

الخلاصة

يمثل الخطاب الذي يتبناه جمهور مشجعي فريق «هبوعيل تل أبيب الألتراس» مزيجًا غير مألوف في ميدان الرياضة الإسرائيلية: حيث يجمع ما بين الاشتراكية، ومعاداة القومية، ومناهضة العنصرية واستخدام المصطلحات الدالة على المحرقة (الهولوكوست) على نطاق واسع. وفي الواقع، ترفض أعداد غفيرة من هؤلاء المشجعين استخدام مصطلحات المحرقة. وتستقطب الرسائل الاشتراكية ردة فعل تتعاطف معها أو تكون اللامبالاة بها من نصيبها. أما الرسائل المعادية للنزعة القومية فهي ليست شائعة، أو لا يعاد تفسيرها على أنها ردة فعل مضادة بسيطة على ادعاء فريق «مكابي تل أبيب» بأنه «فريق الدولة». وفي المقابل، تشكل مناهضة العنصرية جزءًا من الهوية الجماعية لمشجعي فريق «هبوعيل تل أبيب». ويمتزج الوعي المتعاطف الذي يبديه هؤلاء المشجعون، ونظرتهم العلمانية إلى العالم، والنزعة الكونية (الكوزموبوليتانية) التي تترافق مع مستويات أعلى من التعليم، وتراث الاشتراكية التي تصطبغ بصبغة عالمية، والفوائد الرمزية التي يمكن اكتسابها من شارة «مناهضة العنصرية» مع بعضها بعضًا من أجل تهيئة الأرض الخصبة لتبنّي توجه نحو المواطنين العرب وغير اليهود. ومع ذلك، يمكن تفسير العناصر التي يرفضها معظم مشجعي لعبة كرة القدم، ولا سيما مصطلحات المحرقة، من خلال النمط الاجتماعي والسياسي الذي يسم مشجعي فريق «هبوعيل».

[مترجم عن الانكليزية. ترجمة ياسين السيد]

المصادر

Ben-Porat, Amir. 1998. «The Commodification of Football in Israel.» International Review for the Sociology of Sport 33(3):269-76.

Ben Porat, Amir. 2007. Oh, Such A Delighted War: Israelis Football Fans. Haifa: Pardes.

Elias, Norbert, and Eric Dunning. 1986. Quest for Excitement: Sport and Leisure in the Civilising Process. Oxford: Blackwell.

Liebman, C., and E. Don-Yehiye. 1983. Civil Religion in Israel: Traditional Judaism and Political Culture in the Jewish State. Berkeley and Los Angeles: University of California Press.

Peled, Yoav. 1990. « Labor Market Segmentation and Ethnic Conflict: The Social Basis of Right-Wing Politics in Israel.» in The Elections in Israel 1988, edited by Asher Arian and Michal Shamir.

Ram, Uri. 2005. «Jerusalem, Tel Aviv and the Bifurcation of Israel.» International Journal of Politics, Culture and Society 19(1-2):21-33.

Shafir, Gershon, and YoavPeled. 2002. Being Israeli - The Dynamics of Multiple Citizenship. Cambridge and New York: Cambridge University Press.

Shohat, Ella. 1988. «Sephardim in Israel: Zionism From the Standpoint of Its Jewish Victims.» Social Text 19-20:25-26.

Smooha, Sammy. 2010. Index of Arab-Jewish Relations in Israel 2003-2009. Haifa: The Jewish-Arab Center, University of Haifa.

Sternhell, Zeev. 1998. The founding myths of Israel : nationalism, socialism, and the making of the Jewish state. Princeton, NJ: Princeton University Press.

Swidler, Ann. 1986. «Culture in Action: Symbols and Strategies.» American Sociological Review 51(2):273-86.

Zertal, I. 2005. Israel›s Holocaust and the Politics of Nationhood. Cambridge and New York: Cambridge University Press.

الهوامش

١ أجرى هذا المسح أفيخاي شوف عامي (Avichai Shuv Ami) من كلية الإدارة في تل أبيب.

٢ ويكمن الدافع الرئيسي وراء هذا التأييد في المعارضة التي أبداها مشجعو فريق «الألتراس» للعمدة رون هولداي بسبب القرار الذي اتخذه بشأن هدم القاعة التاريخية لنادي كرة السلة. وكان من شأن هذا الغضب الذي اعترى أوساطًا واسعة من مشجعي فريق «هبوعيل» أن مكّن هانين من الحصول على دعم أعداد أكبر من مناصري هذا الفريق ممن لا يبدون الالتزام الأيديولوجي بتشجيع فريق «الألتراس». وقد حصل هانين على ما نسبته ٣٤٪ من الأصوات وخسر هذه الانتخابات.

٣ تستند هذه البيانات إلى مسح أجراه على شبكة الإنترنت في شهر أيلول ٢٠١٢ أفيخاي شوف عامي ومؤلف هذه المقالة. وتضم عينة هذا المسح ٥٠٠ شخص، يشكلون عينة تمثل السكان البالغين الذين يتحدثون العبرية في إسرائيل.

٤ ينظر أنات ريمون–أور (AnatRimon-Or) إلى هذه الهتافات باعتبارها تجسد شكلًا من أشكال الاحتجاج المناهضة للهيمنة، وذلك لأنها تتدخل في الخطاب الليبرالي الإنساني الذي يُستخدم في أحوال ليست بالقليلة كغطاء على التدخل الصهيوني في حياة العرب. وفي الواقع، تعزز المطالبات الصريحة بقتل العرب روح الجماعة الصهيونية وتعطلها في الوقت ذاته، وذلك من خلال فضح مواطن الخلل والقصور التي تعتريها. انظر أنات ريمون–أور، «من الصمت إلى الصوت: «الموت للعرب» في الثقافة الإسرائيلية المعاصرة،» *النظرية والنقد* ٢٠ (٢٠٠٢) [بالعبرية].

٥ يعتمد فريق «بيتار القدس» وحركة «كاخ» الألوان نفسها، وهي الأسود والأصفر. ومن المحتمل أن هذا الاختيار لم يكن عرضيًا عندما أُنشئت حركة «كاخ» في العام ١٩٧١.

٦ حسب البيانات الصادرة عن جهاز الإحصاء المركزي الفلسطيني في العام ٢٠١١، لا يعرّف سوى ٤٢٪ من مجمل السكان الإسرائيليين البالغين أنفسهم على أنهم علمانيون. وترتفع هذه النسبة إلى ٦٢٪ في أوساط الأسر التي لا يقل دخلها الشهري عن ٢٤,٠٠٠ شيكل (٦,٠٠٠ دولار أميركي).

٧ وهذا عبارة عن مقطع ساخر من فيلم «السقوط» («Downfall»)، حيث يستند إلى مشهد يتلقى فيه هتلر الأخبار عن تقدم الجيش الأحمر، وحيث تُستبدل الترجمة الواردة في الفيلم الأصلي بترجمة غير صحيحة.

٨ «أوسفيتش في بلومفيلد»، عميت سالومين، ١١ نيسان ٢٠١٠ [بالعبرية]:

http://www.mako.co.il/Sports-football-il/premier-league/Article-4a3332d7ff4c021006.htm